

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمى الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقون بخلق الفضيلة، لا فاضلون؛ لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعةً للناس، أو خوفاً منهم، أو طمعاً فيهم. فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين، أو خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين.

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة، فذلك من لا نعرف له وجوداً، أو لا نعرف له مكاناً.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشى في طريق الرذيلة، وهو يحسب أنه يمشى في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون؛ لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس؛ لأن الناس لا ينفرون من الرذائل، بل ينفرون مما يضر بهم — رذائل كان أم فضائل — وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به، ومنازه الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلي عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صورٍ

ورسوم، وأكاذيب وألاعب. فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجلٍ مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صباية من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجدٍ قد هدم في سبيله ألف بيتٍ من بيوت المسلمين، والفقير الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريحٍ من أضرحة الأولياء، ووضع في صندوق النذور بكرةً من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها، والمومس التي تتصدق بنفسها ليلةً في كل عام على روح بعض الأولياء عندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثير من أمثال هذه النقائض التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة، والسيرة المستقيمة.

الخُلُق هو الدمعة التي تترقق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظرٍ من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً، أو أساء إلى ضعيفٍ مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحيي خجلاً من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجاجة التي تعترى لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورةً من ضرورات الحياة.

هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يدٌ من الأيدي إلى العبث بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبيُّ في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج، فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة طائفةً من المحفوظات تحشى بها الأدهان، بل ملكاتٌ تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.